

## المحاضرة الخامسة: "فهم الإشارات التعبيرية غير الشفهية وأثرها على عملية التواصل"

لقد أكدنا - فيما سبق - على أن التعبير الشفهي يمثل النمط الأصلي للتواصل بين البشر، إلا أنه لا يتحدد فقط من خلال الظواهر المقطعية وغير المقطعية، بل يلجأ الإنسان - عادة - أن يرفق كلامه بعدد من الحركات الجسدية لتعزيز ملفوظاته وتوضيحها للمستمع كما يقصدها.

وقد أطلق على هاته الحركات المصاحبة للكلام بالاتصال الجسدي أو اللغة الجسدية أو اللغة الصامتة ...

وكلها تندرج ضمن ما يسمّى بالتواصل غير اللفظي، وأمّا العلم الذي يدرسها فيعرف بعلم الحركة الجسمية.

1 / مفهوم الحركة الجسمية: "هي تلك السلوكات غير اللفظية من تليحات وإيماءات وحركات بدنية مختلفة

وتعبيرات وجهية تماثل في دلالتها ومعانيها تلك الرموز اللفظية".

2 / علم الحركة الجسمية (علم الكينات) (La Kinésique):

- ظهوره ونشأته: ويطلق عليه أيضا علم الإشارات والرموز علم السميوطيقا، ويرجع أصل التسمية إلى الكلمة الإغريقية Kinésie وتعني حركة الجسد والروح، وتختص الحركائية بدراسة التواصل غير الكلامي أي كل الحركات والإيماءات المستعملة كعلامات للتواصل، إمّا كنظام مستقل (في حد ذاتها) أو مرتبطة مع الكلام المنطوق (مصاحبة له).

والكينزيك علم حديث ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين على يد العالم الأنثروبولوجي الأمريكي بيردويل (Ray Birdwhistell) في دراسته المعنونة بـ "مدخل إلى الكينزيك (Introduction to Kinésics) وقد نشرها في أوائل الخمسينات.

- وعرف هذا العلم بأنه "علم يختص بوصف أوضاع الجسم وحركاته التي تحدث وفق نمط معين ونتيجة للتعلّم من المجتمع". ثم شرع بيردويل في بناء التواصل غير الكلامي للإنسان على نموذج شبيه بالتقطيع الثنائي للغة حسب مارتيني، وعلى هذا النمط تم تقطيع الحركائية إلى مستوى الكينومورفيم المماثل للمورفيم وإلى الكينيم (Kinème) أو الكين.

وينطق هذا العلم من فرضيته مفادها أن التعبير الجسدي يشكل نسقا مسننا، ويكتسبه الفرد من المجتمع ويختلف من ثقافة لأخرى، والحركة الجسمية تصدر عن أعضاء الجسم المختلفة من الرأس حتى القدم وتسمى حرة كلّ عضو "سلوك": سلوك العين، سلوك اليد... إلخ.

ولا نغفل أنّ الجدل حول الدلالات العالمية للحركات والإيماءات يرجع إلى "داروين" من خلال مؤلفه الشهير "التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان" "The expression of the emotion in man and animal" سنة 1872، ليشرح فيه الإيماءات الانفعالية الواردة في سلوك الإنسان، ومن دون شك أنّ بعض بواكير هذا العلم كانت مبنوثة في التراث العربي والإسلامي؛ كملاحظات وإشارات قبل أن يرتقي إلى مستوى العلم، ويعتبر القرآن الكريم المصدر العربي الأول الذي يوثق تلك الإشارات، ومثاله قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا" 41.

كما تفتن الجاحظ لأهمية الإشارة وخاصة باليد والرأس ودورها الفعّال في عملية التواصل حيث قال: "وحسن الإشارة باليد وبالرأس من تمام حسن البيان باللسان" فهو يدعونا إلى ضرورة ربط اللغة المنطوقة بالحركة الجسمية، ولذلك نجد التداولين في العصر الحديث قد أولوا هذا الجانب أهمية بالغة من خلال ما دعا إليه أوستين من استخدام الحركات والإشارات في مساعدة التلّفظ بالكلام.

3/ أساليب التواصل الإشاري وأشكاله : يصنف "ليونيل بلنجر" التواصل غير الكلامي إلى ثلاثة

أشكال - حسب دلالتها وهي :

أ \* التواصل غير الكلامي الوصفي : ويصلح لتحديد أو الوصف أو التعيين ويضم إيماءات وحركات كثيرة منها:

• حركات تنوب عن أساليب نحوية كالجزم أو النفي أو الاستفهام أو القصد، أو الإنكار... مثال : حركة الرأس للأعلى حركة واحدة تعني الرفض، أما نحو الأسفل فتدلّ على الموافقة، وحركته المتكررة يمينا وشمالا تدل على عدم المعرفة والتأكد.

ولليدين والعينان دور كبير في إبرازها مثال: الاستفهام برفع شيء من أجفان عيوننا كما نعقد شيئا من الحواجب والجبّة أثناء رفعنا لرأسنا بشكل طفيف، ومثل حركات التوكيد: رفع الحاجبين دهشة أو استنكارا أو استخفافا أو تلاعبا وكوضع طرف الإبهام فوق طرف السبابة مع انبساط بقية الأصابع لتوكيد التهديد، ويجب أن ترافق المقطع موضع النبر.

• التعبير الإشاري : مثال حركة السبابة خصوصا لتعيين المتكلمين وموضوع التخاطب والمكان الذي نستحضر فيه الأشياء.

• الحركات الوصفية : ومتفق عليها عالميا وهي أكثر شيوعا مثال:

- وصف سمك شيء بتقريبنا شكل منقار الإبهام والسبابة.

- وصف الأحمق بوضع السبابة على الصدغ.

- وصف حالة النسيان بالضرب على الجبهة بكف اليد.

- تكبير فتحة العينين لوصف الدهشة والانهار بالشيء.

ومثالها أيضا حركات التوضيح التي تظهر في الحركات التمثيلية لوصف شكل صغير، ضخم، مستدير.

ب\* التواصل غير الكلامي التأثري: ويصلح للتعبير عما نشعر به أو عند إضافة قيمة ما أو الحكم على شيء ما.

مثال: تحريك طرف الرجل دلالة على القلق وعدم الصبر

- حك شحمة الأذن ووضع السبابة على حافة ملتقى الشفتين يعني درجة الانشغال والتردد.

- فتح الذراعين للترحيب، وضع اليد موضع القلب تدل على الجهر بالصراحة.

ج\* التواصل غير الكلامي الرمزي: ويتعلق بمظاهر منسوبة لثقافة معينة أو مكان ما، ومعروفة لطبقات

الشعب كلها، مفهومة لدى الجميع حتى لو كانت لوحدها، مثال: قبضة اليد وتعني الإتحاد والتضامن،

وبعض أشكال تقطيب الوجه أو انبساطه المرافقة للكلام لتدعيمه أو النياحة عنه في بعض الحالات مثل:

تقطيب الجبهة (أعلى الوجه) دلالة على الصعوبة والألم والذهول، تجعيدات حول العينين دلالة على

الابتسامة والنظافة.

فالجسم يشارك بكل حركات أعضائه لتأثير كلامه وإيصال المعنى المقصود ومن أهمها: الوجه بكل

تفاصيله، قال تعالى: "سيماهم في وجوههم من أثر السجود" (الفتح 29)، وكذلك العين التي تعتبر "عالم

اتصال كامل" فهي عضو واحد إلا أنها تنقل معاني متعددة (عبرة النظرة)، فالعيون هي النبع الفيض

لإثارة المشاعر حيث يقول الشاعر:

العَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا  
إِنَّ الْبَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ تُكْشِفُهُ  
فَالْعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ  
حَتَّى تَرَى مِنْ صَمِيرِ الْقَلْبِ تَبْيَانًا  
مِنَ الشَّنَاءِ أَوْ حُبِّ إِذَا كَانَ  
لَا تَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الْقَلْبِ كِتْمَانًا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيْفَةَ أَهْلِهَا . . .  
فَأَيَقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرَحِبًا . . .  
إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تُتَكَلَّمْ  
وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيبِ الْمُتَمِّمِ

فلغة الجسد كانت حاضرة بقوة في القرآن الكريم {عبس وتولى} (عبس 1) وفي الأدب العربي منذ القديم.

4/ أهميتها: وتكمن أهمية اللغة الصامتة من خلال ما نلاحظه في استجابة المستقبل من إقبال وتفهم وسرعة

التأثر والاستجابة، وتجلّى في عدّة جوانب منها:

- الإيجاز: حيث أنّ تأدية إشارة أو لمسة كافية للتعبير عن أمر أو نهي أو قبول أو رفض أو عاطفة

معينة في لحظة واحدة.

- السرعة: حيث لا تتطلب الإشارة متتالية زمنية كما هو الحال في أداء المنطوق.
- سرّية الأداء: للمرسل حرية الإعلان عن رأيه أو إعراضه... دون خوف أو حرج.
- تعدد من أهم قنوات التواصل العاطفي حيث يعبر المرسل عن عدة حالات شعورية (حب، ترحيب، رفض، ازدراء، نفور...) من خلال نظرة عين مثلا.
- الجرأة في التعبير الإشاري دون أن يتبعه شيء كما في الكلام من نتائج.
- تمثل لغة الجرم فهي لا تحتاج إلى مبررات أو أدلة إقناعية، فتغيير سلوك ما يكون عن طريق حركة ما.

- وما يؤكّد تواجد الحركة الجسميّة بالقوّة في كلّ حالات تواصلنا هو أنّ تأدية هذه الحركات ليس قصرا على المواجهة المباشرة التي تتطلّب حضور المرسل والتلقي معا وإنما حتى أثناء التحدث في الهاتف دون مواجهة المتلقي.

لذلك ازدادت العناية بهذا العلم لجعله علما تطبيقيا يمكن تعليمه توازيا مع النظام اللغوي ليسهل التواصل مع الشعوب الأجنبية ويهذب سلوك الصغار بتلقينهم النظام الحركي المهذب، ونشير أخيرا إلى أنّ بيردوسل تحدث في لمقابل دلالة الحركة الجسميّة عن دلالة انعدام الحركة وهو ما أسماه بالباركينات "Parkines"، فنحن نعلم أنّ السكوت أحيانا أبلغ من الكلام، كذلك انعدام الحركة كالوقوف أو الجلوس أو شخوص البصر وتوقف حركة العين قد يكون أحيانا أبلغ من الحركة وضمّ كذلك داخل هذا النظام لون الجلد كحمره الوجه نجلا، وصفرته وجلا وسواده غمّا وهمّا.